الشَّيطان(١)

قال الشَّيخُ أبو الحسن بن الدَّقَّاق : كان شيخي أبو عبد الله محمَّد الأزهريُّ العجميُّ رضي الله عنه رجلاً صاحبَ آياتٍ وخَوَارِقَ ممَّا فوقَ العقلِ ، كأنَّما هو سِرٌّ من الأسرار الجاريةِ في هذا الكون ، قد بلغ بنفسه رتبةَ النَّجم في أُفقِه البعيد ؛ ففيه أهواءُ الإنسان ، وشهواتُه ، وطباعُه ، إلا أنَّها كُنُوز النَّجم في تألُّقِه ، ولألائه من إشراق روحِهِ ، وصفائها ، وقد ارتفع بآدميَّته فوقَ نفسها ، فأصبح في النَّاس ، ومعه سماؤه ، يجعلُها بين قلبه ، وبين الدُّنيا .

والرَّجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كان حيّاً ، كالميت ساعةَ احتضارِه : ينظرُ إلى كلِّ ما في الحياة نظرةَ مَنْ يتركُ ، لا مَنْ يعتبرُ ، لا مَنْ يَغْتَرُّ . ومَنْ يَلْفظُ ، لا مَنْ يَتذوَّق . ومن يُدرك السِّرَّ ، لا من يتعلَّق بالظَّاهر ، ويرى الشَّهوات كأنَّها من لغةٍ لا يعرفها ، فهي ألفاظٌ فيها معاني أهلِها ، لا معانيه ، وإنَّما تلبَسُ كلماتُنا معانيها من أنفسنا . وفي النُّفوس مثلُ الهشيم : إذا وقعتْ فيه المعاني المشتعلةُ استطارَ حَريقاً ، وتَضَرَّمَ ، وفيها على المجاهَدَةِ مثلُ الماء ؛ فإذا خالطَتْهُ تلك المعاني ؛ انطفأتْ به ، وخمدتْ .

وقد سألتُ الشَّيخَ مرَّة : كيف تَحدثُ الكراماتُ ، والخوارقُ للإنسان ؟ فقال : يا ولدي ! إنَّ الإنسانَ من النَّاس المحجوبين يتصرَّفُ في جسمه ، ولا يكاد يملكُ لروحانيته شيئاً ، فإذا أبلى في المجاهدة ، ووقَع في قلبه النُّور ، تصرَّف في روحانيَّته ، ولا يكاد يملكُ لجسمه شيئاً ، فمن أطاق أن يَنسلخَ من بشريَّته ، واتَّسعتْ ذاتُه في معاني السَّماء بمقدارِ ما ضاقت من معاني الأرض ، وكان مُعَدّاً لأن يتحقَّقَ في روحانيَّته ، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق الاعتدال ـ فقد شاع في الكون ، وأصاب له وجهاً ، ومذهباً إلى تلك القوَّة ؛ الَّتي تَهدِمُ في العالم ، وتبني ، وتُفرِّق ، وتَجمع ، وتنقلُ الصُّوَرَ بعضَها إلى بعضٍ ، فإنَّ الكونَ كلَّه جوهرٌ واحدٌ ، هو النُّور ، حتَّى الجبلُ هو نورٌ صَخْرِيٌّ ، وحتَّى البحرُ هو نورٌ مائيٌّ ، وحتَّى

---

(١) انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعي » . (س) .

الحديدُ ، والذَّهب ، والتُّراب ، كلُّ ذلك نورٌ[١] صرَّفتْه القدرةُ الإلهية تصريفَها المعجز ، فكان على ما نرى : ظاهرٌ مخيَّلٌ يلائم نقصنا ، وعجزنا ، وحقيقةٌ قارَّةٌ على غير ما نرى . ومن ذا يعقل : أنَّ الصَّخرَ نورٌ متجمِّدٌ ؛ إذا لم يكنْ له إلا عقلُ عينه ، وحواسِّه ؟ ومن ذا يُطيق أن يفهم بحواسِّه وعينِه قولَ الله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النَّمل : ٨٨] ؟ فالجبالُ جامدةٌ ثابتةٌ ، غيرَ أنَّها تمرُّ بأرضها ، وتموجُ في نفسها ؛ ومتى تأذَّنَ الله أن ينكشفَ نورُ كلامِه للعقل الإنسانيِّ ؛ فستكون هذه الآية عِلْماً جديداً في الأرض ، يُثْبت : أنَّ السَّحابَ ، والجبلَ مادةٌ واحدة ، وصُنعٌ واحد .

ويالها سُخريةً بالإنسان وجهله ! فإنَّه إذا كانت الحقيقةُ غيرَ ما نرى ، فكلُّ شيءٍ في الدُّنيا هو ردٌّ على النَّظر الإنسانيِّ ، ويكاد الجبلُ العظيم يكون كلمةً عظيمةً تقول للإنسان : « كذَبْت ! » .

فالشَّأنُ في الخوارقِ ، والكراماتِ راجعٌ إلى القدرة أن يُسَلِّطَ الإنسانُ الرُّوحانيُّ ما فيه من سرِّ النُّور على ما في بعض الأشياء من هذا السِّرِّ ، وتلك هي طاعة بعضِ الكونِ لمن ينصرفُ عن المادَّة ، ويتَّصلُ بخالقها .

فإذا بقي في الرَّجل الرُّوحانيِّ شيءٌ من أمر جسمِه ؛ يقول : « أنا . . . » لم يكنْ في الرَّجل من تلك القدرة ذَرَّةٌ ؛ فإن هو حاول أن يَخْرِقَ العادَة ، أبىٰ الكونُ أن يعرفَه إلا كما يعرفُ حجراً مُلقىً يحاول أن يتصرَّف بالجبل الَّذي هو منه فينقلَه ، أو يزحزحَه ، أو يزلزلَه .

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخْذٌ من حقوق هذه الـ« أنا . . . » في إنسانها ، ولا شرَّ على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافةُ حقوقٍ إليها : فحين لا يبقى لها حقٌّ في شيءٍ عند نفسها ، يجبُ لها الحق عندئذٍ على كلِّ شيءٍ . وهذه هي الكرامة ؛ تُكرِمُ الخليقةُ مَن أكرمه الخالق .

فمن أراد أن تتَّصلَ نفسُه بالله ، فلا يكنْ في نفسه شيءٌ من حظِّ نفسه ، ولا يؤمِنْ إيمانَ هؤلاء العامَّة : يكون إيمانُهم بالله فكرةً تُذكَر وتُنْسَى ، أمَّا عملُهم ؛

(١) كلمة (النور) هذه هي التي يعبر عنها اليوم بالكهرباء ، وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون . (ع) .

فهو إيمانُهم الرَّاسخُ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى .

وأنت ترى رجالَ الرُّوح يأكلون ، ويشربون ، ويلبَسون ، ولكن هذا كلُّه ليس فيه ذَرَّةٌ من أرواحهم ، على خلافِ غيرهم من النَّاس ؛ فهؤلاء كلُّ أرواحهم في مَطَاعمهم ، ومناعمهم ؛ ومن ثَمَّ لا يَجري الشَّيطانُ من الأوَّلين إلا في مَجارٍ ضيقةٍ أشدَّ الضِّيق لا يكادُ ينفذُ منها إلى فكرٍ ، أو شهوةٍ ، أو حُلُمٍ من أحلام الدُّنيا ، أمَّا الآخرون ؛ فالشَّيطانُ فيهم هو تيَّارُ الدَّم ، يَعُبُّ عُبابُه في الأسفل ، والأعلى .

* * *

قال أبو الحسن : وكنا يومئذٍ في دمشق ، فنبَّهني كلامُ الشَّيخ عن الشَّيطان إلى ما قرأتُه عن كثيرين ممَّن رأوا الشَّيطانَ ، أو حاوَروه ، أو صارَعُوه ؛ فقلت للشَّيخ : إنَّ من حقِّك عليَّ أن أسألَك حقِّي عليك ، وما في نفسي أحبُّ إليَّ ، ولا أعجبُ من أن أرى الشَّيطانَ ، وأكلِّمه ، وأسمعَه ! وأنت قادرٌ أن تنقلَني إليه ، كما نقلتني إلى ما دخلتَ بي عليه من عوالم الغيب .

قال الشَّيخ : وماذا يردُّ عليك أن تَرى الشَّيطانَ ، وتكلِّمَهُ ؟

قلتُ : سبحانَ الله ! لا يُجدي عليَّ شيئاً إلا أن أسخَرَ منه .

قال الشَّيخ : فإنِّي أخشى يا ولدي ! أن يكونَ الشَّيطانُ هو الَّذي يريد أن تراه ، وتسمعَه . . . !

قلت : فإنِّي أريد أن أسألَه عن سرِّه ، فيكون علماً ، لا سخرية .

قال : لو كَشَفَ لك عن سرِّه ؛ لما كان شيطاناً ، فإنَّما هو شيطانٌ بسرِّه ، لا بغيره .

قلت : فأريد أن أرى الشَّيطان ؛ لأكونَ قد رأيت الشَّيطان !

قال الشَّيخ : لا حولَ ولا قوة إلا بالله ! لو كنتَ يا أبا الحسن ! بأربع أرجُلٍ ؛ لهربتَ من الشَّيطان بثلاثٍ منها ، وتركته يجرُّك من واحدةٍ !

قلت : يا سيدي ، فلو كنتُ حماراً ؛ لبطل عملُ الشَّيطان في أرجلي الأربع كلِّها ؛ إذ لا حاجةَ به إلى إغواء حمار !

فتبَّسم الشَّيخ ، وقال : ولا بدَّ أن تَرى الشَّيطانَ وتكلِّمه ؟

قلت : لا بدَّ .

قال : إنَّه هو يقولها ، فَقُم !

* * *

قال أبو الحسن : وكان الشَّيخُ إذا مشى إلى أمرٍ خارقٍ ، بقيتُ معه غائباً عن الحسِّ ، كأنَّه يُبْطِلُ منّي ما أنا به أنا ، فأصْبِحُ ظِلاً آدميّاً معلقاً به . ولا تقع الخوارقُ إلا لمن وجد القوَّةَ المُكمِّلةَ لروحه ، وهذه القوَّة تُستَمدُّ من الشَّيخ الواصل ، فلا بدَّ من إمامٍ يأخذ عن إمامٍ ، كأنَّها سلسلةٌ نفسيَّةٌ متميِّزةٌ في الأرض ، فتتغيَّر الواحدةُ منها بالواحدة ؛ إذ تقع في جوِّها ، فتُورِقُ ، وتُثمر ؛ كالشَّجرة : جَوٌّ يكسوها ، وجَوٌّ يُذْبِلُها ، وجوٌّ يسلُبها سلباً ؛ وكذلك تفعلُ النَّفسُ ؛ إذا كان لها جَوٌّ .

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشَّيخ كالمحمول ، فرأيتُنا وقد أشرفنا على بناءٍ عظيم ، ورأيتُ أقواماً يَتلَقَّوْنَ الشَّيخَ ويسلِّمون عليه ، ويتبرَّكون بمقدَمِه ؟ فأنكرَتْهُم نفسي ، ووجدتُ منهم وَحْشَةً ، فالتفتَ إليَّ الشَّيخ ، وقال : هؤلاء من الجنِّ ، وما إليهم قَصَدنا ، فلا تشتغلْ بما ترى ، واشتغل بي .

ثُمَّ ننتهي إلى البناء العظيم ، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى ، ويُدْخِلون الشَّيخَ وأنا خلفه ، ويمرُّون بنا على دنيا مخبوءةٍ تُعْجِزُ الوصفَ ، ممَّا لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ؛ فيقولون : هذه كنوزُ سليمان ، وذخائرُه ، ويطوفون بالشَّيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً ؛ فرأينا ثَمَّ نعيماً ، ومُلْكاً كبيراً ، ثُمَّ انتهينا آخِراً إلى مغارة خسِيفةٍ كأنَّها عِرقٌ من عُروق جسم الأرض ، يتفَجَّرُ منها دويٌّ كالرَّعدِ القاصفِ ، إلا أنَّه في السَّمع كخُوَار الثَّور ، إلا أنَّه ثورٌ خُيِّلَ إليَّ أنَّ رأسه قَدر جَبَلٍ عظيم ، يتعلَّق به غَبْغَبٌ(١) في قَدْر جبلٍ آخر ، على جسمٍ يَسُدُّ الخافقين ، فخُوارُه كأنَّه صُراخُ الأرض ، وإذا أنا بأقبحِ مكانٍ منظراً ، وأنتنِهِ ريحاً ، كأنَّه سجنٌ بناؤه مِنَ الجِيَف .

فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا سجنُ إبليس ، وهو هنا في هذه المغارة منذُ زمن سليمان عليه السلام .

قلت : أفَمَسْجونٌ هو ؟

---

(١) غبغب الثور ، وغببه : ما تثنّى من لحم ذقنه من أسفل . (ع) .

قالوا : وإنَّه مع ذلك مُوقَرٌ بأمثالِ الجبال حديداً يَرْبِضُ به في مَحْبِسِه ، فلا يتزحزحُ ، ولا يَتَحَلْحَل .

قلت : وإنَّه مع ذلك قد ملأ الدُّنيا فساداً ، فكيف به لو كان طليقاً ؟

قالوا : فلو أنَّه كان طليقاً ؛ لاستَحْوَذَ على النَّاس كافَّةً ؛ فيجتمعُ أهلُ الأرض على شهوةٍ واحدةٍ لا شيء غيرُها ، فيبطلُ مع هذه الشَّهوة الواحدة كلُّ تدبيرٍ بينهم ، فلا تقومُ لهم سياسةٌ ، ولا يكونُ بينهم وازعٌ ؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكَلَبُ ، وهاجَ بها ، فأنيابها في لحمها ، لا يزال يَعَضُّ بعضُها بعضاً ، فليس لجميعها إلا عملٌ واحدٌ يُسلِمُها إلى الهلاك ، ويُصبح ظهرُ الأرض أعْرَى مِنْ سَراةِ أديم .

وإنما يَصلُحُ الناسُ باختلاف شهواتهم ، وتَنَافُرِها ، وتنازُعِها ، فبعضها يحكم بعضاً ، وشيءٌ منها يَزَعُ شيئاً ، ومن تخلَّص من نَزوَةٍ ؛ قَمَعَ بها نزوةً أخرى ، كالمتزوِّج المُحْصَنِ : يحكُم بالجلد ، والرَّجمْ على مَن ليست له امرأةٌ ، فزنى ، وكالغنِيِّ الواجد : يحكم على اللِّصِّ الذي لم يجدْ ، فسرق ، وهلمَّ جرّاً .

وما ينشَأ النَّاس في ثلاثة أعمار ، فَيشِبُّون ، ويكتهِلون ، ويهرَمُون ، إلا لتختلفَ شهَواتُهم ، وتختلفَ مقاديرُ الرَّغبةِ فيها ، فتتحقَّقُ من ثَمَّ تلك الحكمةُ الإلهية في التدبير ، ويجدُ الشَّرعُ محلَّه بينهم ، كما يجدُ العِصيانُ بينهم محلَّه .

ولو أنَّ أمةً كلَّها أطفالٌ ، أو كُهولٌ ، أو شيوخٌ ؛ لبادتْ في جيلٍ واحدٍ ؛ وإنَّه ليس أسمجَ من الرَّذيلة تكون وحدَها في الأرض إلا الفضيلةُ تكون وحدَها ، فلا بدَّ من شيءٍ يَظهرُ به شيءٌ غيرُه كالضِّدِّ والضِّدِّ ؛ والمعركةُ إذا انتصر كلُّ مَنْ فيها ؛ كانت هزلاً ، وكانت شيئاً غيرَ المعركة .

قال أبو الحسن : وقلتُ لهم : فإذا كان الشَّيطانُ سجيناً قد ربَضَتْ به أثقالُه ، حتَّى لَهُو في سجنٍ مبالغةً في كفِّه ، والتَّضييق عليه ، فكيف يَفتِنُ النَّاسَ في أرجاء الأرض ، ويُوسْوسُ في قلوبهم ، حتَّى لَهو يَدٌ بينَ كلِّ يدَين ، وحتَّى لَهو العينُ الثَّالثةُ لِعَيْنَيْ كلِّ إنسان ؟

قالوا : إنَّ في روحه النَّارية قوةً تَفْصِل منها ، وتنتشر في الأرض ، كشُعاع الشَّمس من الشَّمس : هذه كُرَةٌ ناريةٌ ميِّتة معلَّقة على الأجسام مُرْصَدَةٌ لها ، وتلك كرةٌ نارية حيَّة معلقةٌ على النُّفوس مُرصَدَةٌ لها ، وبهذه ، وتلك عَمارُ الدُّنيا ، وأهل الدُّنيا .

قلت : لعلَّكم أردتم أن تقولوا : خراب الدُّنيا وأهلِ الدُّنيا . فغَلِطتم ، فكان يبنغي أن يجيء بَدَلُ الغلط . . .

فقال أحدهم : يا أبا الحسن ! خَرَقَ الثَّوبُ المسمارَ . جاز هنا لأمن اللَّبْسِ أن يكونَ المفعولُ به ـ وهو الثَّوبُ ـ مرفوعاً ، وفاعلُه ـ وهو المسمار ـ منصوباً ، هل جئتَ ـ ويحك ! ـ تطلبُ النَّحوَ ، أو تطلب الشَّيطان . . . ؟

* * *

قال أبو الحسن : فقطَعني الجِنِّيُّ ـ واللهِ ! ـ وأخجَلني ، ونظرتُ خلسةً إلى الشَّيخ أراه كيف يسخَر منِّي ، فإذا الشَّيخ قدِ امَّلَس[1] ، فلا أراه ، وإذا أنا وحدي بين الجنِّ ، وبإزاء هذا السَّاحر ، وُضِعَت عينُه في جبهته ، وشُقَّ فمهُ في قَفاه . . ! فَسُرِّيَ عنِّي ، وزال ما أجدُه ، وقلت في نفسي : الآن أبلغُ أَرَبي من الشَّيطان ، ويكونُ الأمرُ على ما أريد ، فلا أجدُ من أحتَشِم ، ولا تَقْطَعُني هيبةُ الشَّيخ . . !

ووقع هذا الخاطرُ في نفسي ، فاستعذتُ بالله ، ولعنتُ الشَّيطان ، وقلت : هذا أوَّلُ عَبَثِه بي ، وجعلُه إيَّايَ من أهلِ الرِّياء ، كأنَّ لي شأناً في حضور الشَّيخ ، وشأناً في غيابه ، وكأنِّي مُنافقٌ ، أُعْلِنُ غيرَ ما أُسِرُّ ، وقلت : إنَّا لله ! كِدتَ يا أبا الحسن ! تَتَشَيطن .

ثُمَّ هممتُ أن أنكُصَ على عقبيَّ ، فقد أيقنتُ : أنَّ الشَّيخ إنَّما تخلَّى عنِّي ؛ لأكونَ هنا بنفسي لا به ، وما أنا هنا إلا به لا بنفسي ، فيُوشِك إذا بقيْتُ في موضعي أن أهلِك ! بَيْد أنَّ المغارة انكشفت لي فجأةً ، فما ملكتُ أن أنظر ، ونظرتُ ، فما ملكتُ أن أقف ، ووقفتُ أرى ، فإذا دخانٌ قد هاجَ فارتفع يثُور ثُوَرَانَه حتَّى تملأ[2] المكانُ به ، ثمَّ رقَّ ، ولطفَ .

واسْتَضْرَمَتْ منه نارٌ عظيمةٌ لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضطرم بعضُها في بعضٍ ، ويُسمَع من صوتها مَعمَعة[3] قويَّةٌ ، ثمَّ خَمدَت .

وانفجرَ في موضعها كالسَّدِّ المنبثِق من ماءٍ كثيفٍ أبيض ، أصفرَ ، أحمرَ ، كأنَّه

(١) « املس » من الأمر : أفلت منه .

(٢) « تملأ » : امتلأ .

(٣) « معمعة » : صوت الحريق في القصب ونحوه .

صَديدٌ يَتَقَيَّحُ في دمٍ ، ثُمَّ غاض .

وتَتَبَّعَتْ في مكانه حَمْأةٌ منتِنةٌ ، جعلت تَربُو ، وتَعظمُ حتَّى خِفْتُ أن تَبتلعَني ، وأذهبَ فيها ، فسمَّيْتُ الله تعالى ، فغارت في الأرض .

ثُمَّ نظرتُ ، فإذا كلبٌ أسودُ مُحْمَرُّ الحَمَاليق ، هائلُ الخِلْقة ، مسْتأسِد ، قد وقفَ على جيفةٍ قَذِرةٍ غاب فيها خَطْمُه يَعُبُّ ممَّا تَسِيل به .

فقلت : أيُّها الكلبُ ! أأنت الشَّيطان ؟

وأنظرُ ، فإذا هو مَسْخٌ شائِهٌ[1] كأنَّه إنسانٌ في بهيمةٍ قد امتزَجا ، وطغى منهما شيءٌ على شيءٍ ، أمَّا وجهُه ؛ فأقبحُ شيءٍ منظراً ، تحسبُه قد لَبِس صورةَ أعماله . .

ونطق فقال : أنا الشَّيطان !

قلتُ : فما تلك الجيفة ؟

قال : تلك دنياكم في شهواتها ، وأنا ألْتَقِمُ قلبَ الفاسق ، أو الآثِم منكم ، كما ألتقمُ دودةً من هذه الجيفة .

قلت : عليك لعنةُ الله ، وعلى الفاسقين ، والآثمين ! فكيف كنتَ دخاناً ، ثم انقلبتَ ناراً ، ثُمَّ رجعت قَيحاً ، ثمَّ صرتَ حمأةً ، ثُمَّ كنت كلباً على جيفة ؟

قال : لا تلعن الفاسقين ، والآثمين ؛ فإنَّهم العبَّاد الصَّالحون بأحد المعنيين ، وأنت وأمثالُك عُبَّاد صالحون بالمعنى الآخر ، أليس في الدُّنيا حياءٌ ، ووقاحة ؟ فأولئك يا أبا الحسن ! هم وقاحتي أنا على الله ! أنا منكم في زهدكم حِرمانُ الحرْمان ، وفقرُ الفقر ، ولقد أهلكتموني بُؤساً ؛ غير أنِّي معهم لذَّةُ اللّذة ، وشهوةُ الشَّهوة ، وغِنَى الغِنَى ، لا تتمُّ لذَّةٌ في الأرض ، ولا تحلو لذائقها وإن كانت حلالاً ، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنىً من معانيَّ ، أو وقاحةً من وقاحتي ! حتَّى لأجعلُ الزَّوجةَ لزوجها مثلَ الشِّعر البليغ ، إذا استعار لها معنىً منِّي ، وكلُّ ما فسدت به المرأة ، فهو مَجازي ، واستعارتي لها ، أجعلُها به بليغةً . . .

وأنتم يا أبا الحسن ! تقطعون حياتكم كلَّها تجاهدون إثْمَ ساعةٍ واحدةٍ من حياة عبَّادي ، فانظر ـ رحمك الله ! ـ لئن كانت ساعةٌ من حياتهم هي جهنَّمكم أنتم ،

---

(١) « شائه » : قبيح .

فكيف تكون جهنَّمُ هؤلاء المساكين ؟

إنَّك رأيتَني دخاناً ؛ لأنِّي كذلك أنبعثُ في القلب الإنسانيِّ ، فمتى تحرَّكْتُ فيه حركةَ الشَّر ؛ كنت كالاحتيال لإضرام النَّار بالنفْخ عليها ؛ فمن ثَمَّ أكونُ دخاناً ، فإذا غَفَل عنِّي صاحبُ القلب ؛ تضرَّمتُ في قلبه ناراً ، تطلب ما يُطفئها ، ثُمَّ يُواقع الإثمَ ، والمعصية ، ويقضي نَهْمَتَه ، فأبْرُدُ عن قلبه ، فيكونُ في قلبه مثل الحرق الذي بَرِدَ فتأكَّلَ موضعُه ، فتقيَّح ، ثُمَّ يختلط قيحُ أعماله بمادَّته الترابية الأرضية ، فينقلب هذا المسكين حمأةً إنسانيَّة لا تزال تربو ، وتنتفخ ، كما رأيت .

قلت : أعوذ بالله منك ! أفلا تعرفُ شيئاً يردُّك عن القلب ؛ وأنت دخانٌ بَعْد ؟

فقهقه اللَّعين ، وقال : ما أشدَّ غفلتَك يا أبا الحسن ! إذ تسأل الشَّيطانَ أن يخترع التَّوبة ! أما لو أن شيئاً يَخترع التَّوبة في الأرض ؛ لاخترعها القبرُ الذي يَدْفِنُ فيه بعضُكم بعضاً كلَّ طرفة عين من الزَّمن ، فتُنزِلون فيه الميِّتَ المسكينَ قد انقطع من كلِّ شيءٍ ، وتتركونه لآثامه ، وحسابِ آثامه ، والهلاكِ الأبديِّ في آثامه ؛ ثُمَّ تعودون أنتم لاقترافِ هذه الآثام بعينها !

قلت : عليك ، وعليك أيها اللعين ! ولكن ألا يتبدَّد هذا الدُّخان إذا ضربَتْه الرِّيح ، أو انطفأ ما تحته !

قال : أوّه ! لقد أوجعْتَني كأنَّما ضربْتَني بحبل من نارٍ ، إنَّ نبيَّكم عرَفها ولكنَّكم أغبياء ؛ تأخذون كلامَ نبيِّكم كأنَّما هو كلامٌ ، لا عَمل ، وكأنَّه كلامُ إنسانٍ في وقته ، لا كلامُ النُّبوَّة للدَّهر كلِّه ، وللحياة كلِّها ؛ ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على النَّاس ، فإنِّي أضعُ المعانيَ الَّتي تعمل ، لا الحكمةَ المتروكةَ لمن يعملُ بها ، ومن لا يعمل .

أتدري يا أبا الحسن ! لماذا أعجزني أسلافكم الأوَّلون مثل : عُمر ، وأبي بكر ؟ حتَّى كان إسلامُهم من أكبر مصائبي ، فتركوني زمناً ـ وأنا الشَّيطانُ ـ أرتابُ في أنِّي أنا الشَّيطان . . . ؟

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تَلْعَنْ ، فلستُ قائِلها إلا إذا تَرحَّمْتَ عليَّ .

قلت : عليك ؛ وعليك من لَعَنات الله ! قل لماذا ؟

قال : أسائِلٌ ، ويأمر ؟! وطُفَيْليٌّ ، ويَقْتَرِح ؟! لا بدَّ أن تترحَّم !

قلت : يرحمُنا الله منك ! قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنةٌ في لفظةِ رحمة ؛ لا ! إلا أن تترحَّم عليَّ أنا إبليس الرَّجيم !

قلت : فيُغنِي اللهُ عن علمك ؛ لقد ألهَمْتنيها روحُ النَّبيِّ ﷺ : إنَّ النُّبوَّة كانت هي بأعمالها ، وصفاتِها تفسيراً للألفاظ على أسمى الوجوه ، وأكملِها ، فكان روحُ النَّبيِّ ﷺ لتلك الأرواح كالأمِّ لأبنائها ؛ وقد رأوه لا يغضبُ لنفسه ، ولا لحظِّ نفسِه ، وذلك لا يستقيم إلا بالقَصْد في أمر النَّفس ، وجعلِ ناحيةِ الإسراف فيها إسرافاً في العمل لسعادة النَّاس . وكلَّما ارتدَّ الإنسانُ لنفسه وحظوظِها ارتدَّ إليك ـ أيُّها اللَّعين ! ـ وأقبلَ على شقاء نفسه ، وكلَّما عمل لسعادة غيره ؛ ابتعد عنك ـ أيُّها الرجيم ! ـ وأقبل على سعادة نفسه ، وتَرْكُ الغضب وحظوظِ النَّفس هو الصَّبر ؛ وصبرُ الأنبياء والصِّدِّيقين ليس صبراً على شيءٍ بعينه في الحياة ، بل هو الصَّبرُ على حوادث العمر كلِّه ، كصبر المسافر إن كان عزيمةً مدَّةَ الطَّريق كلِّها ، وإلا كان فساداً في القوَّة ، ووقعَ به الخِذلان .

فهذا الصَّبرُ المُعْتزِمُ المصمِّم ؛ الَّذي يُوَطِّنُ به الرَّجلُ نفسَه أن يكونَ رجلاً إلى الآخر ـ هو تعبُ الدُّنيا ، ولكنَّه هو رَوْحُ الجنَّة مع الإنسان في الدُّنيا . والمؤمنُ الصَّابر رجلٌ مُقْفَلٌ عليه بأقفال الملائكةِ الَّتي لا يَقْتَحِمُها الشَّيطانُ ، ولا تفتحُها مصائبُ الدُّنيا ؛ ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ : « إنَّ المؤمنَ يُنْضي شيطانَه ، كما يُنْضي أحدُكم بعيرَه في سفره »[1] كأنَّه يقول : لو لم يصبر المسافر دائباً معتزِماً مدةَ سفرِه كلِّها ؛ لما أنْضَى بعيرَه ، ولو لم يصبر المؤمنُ دائباً معتزِماً مدَّة حياتهِ كلِّها ؛ لما أنضى شيطانَه .

فصاح الشَّيطان : أوَّه ! أوَّه ! ولكن قل لي يا أبا الحسن ! ما صَبْرُ رجلٍ مؤمنٍ قويِّ الإيمان ، قد استطاع بقوَّة إيمانه أن يُفيقَ من سُكْر الغِنى ، فتخَلَّص من نزوَات الشَّياطين الذَّهبيةِ الصَّغيرة ؛ التي تسمُّونها الدَّنانير ؛ وقد أردتُه على أن يكذبَ ، فرأى الإيمانَ أن يَصْدُق ؛ وجَهَدتُ به أن يغضَب ، فرأى الحكمةَ أن يهْدأ ؛ وحاولتُ منه أن يطمعَ ، فرأى الرَّاحةَ أن يرضَى ؛ وسَوَّلتُ له أن يَحْسُدَ ، فرأى

(١) سبق تخريجه .

الفضيلةَ ألا يُبالي ؛ وأخذ لنفسه من كلٍّ شيءٍ في الحياة بما يثقُ : أنَّه الإيمانُ ، والصبرُ ، والهدوء ، والرِّضا ، والقناعة ؛ وأحاط نفسَه من هذه الأخلاق بالسَّعادة القلبيَّة ، واجْتَزَأ بها ؛ وقَصَر نظرَه على الحقيقة ، ووجد الجمالَ في نفسه الطَّيِّبة الصَّافية ؛ وأجرى ما يُؤلمه ، وما يَسُرُّه مَجرًى واحداً ؛ ونظر إلى العمرِ كلِّه كأنَّه يومٌ واحد يَرْقُبُ مغرِب شمسه ؛ وأخذ من إرادته قوَّةً أنْسَتْهُ ما لم تُعطِه الدُّنيا ، فلم يَحْفِلْ بما أعطت الدُّنيا ، وما مَنَعتْ ؛ وعاش على فقره بكلٍّ ذلك كما يعيش المؤمن في الجنَّة : هذا في قصرٍ من لؤلؤةٍ ، أو ياقوتةٍ ، أو زَبَرْجَدَةٍ[1] ، وذاكَ في قصرٍ من الحكمة ، أو من الإيمان ، أو من العقل .

قال الشَّيطان : فلمَّا أعجزَني صلاحاً ، ورضاً ، وصبراً ، وقناعةً ، وإيماناً ، واحتساباً ، وكان رجلاً عالماً فقيهاً ؛ سوَّلتُ له أن يخرجَ إلى المسجد ليعِظَ النَّاسَ فينتفعوا به ، ويُبَصِّرهم بدينهم ، ويتكلَّمَ في نصِّ كلام الله ؛ فعقَد المجلس ، ووَعَظ ، وانصرفوا ، وبقي وحده .

فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النِّساء في الدِّين من أمر طبيعتهنَّ ؛ وكانت امرأةً جَزْلَةً[2] ، غَضَّةً ، رابيةً[3] ، يهتزُّ أعلاها ، وأسفلُها ، وتمشي قصيرةَ الخَطْو ، مُتَّاقِلَةً ، كالمتضايقة من حَمْلِ أسرار جمالها وأسرار بدنِها الجميل ؛ فبَعْض مشيتها يَقَظَةٌ ؛ وبعضُها نومٌ فاترٌ تخالطه اليقظَة ؛ ولا يراها الرَّجلُ الفَحْلُ التامُّ الفُحولة إلا رأى الهواء نفسَه قد أصبح من حولها أنثى ، ممَّا تَعْصِفُ به ريحُها العَطِرة عِطرَ زينتها ، وجسمِها .

وكان الواعظ قد ترمَّل من أشهرٍ ، وكانت المرأة قد تأيَّمَتْ من سنَواتٍ ، فلمَّا رآها غَضَّ طرْفَه عنها ؛ ولكنَّها سألته بألفاظها العذْبَة عن أمورٍ هي من أسرار طبيعتها ، وسألته عن طبيعتِها بألفاظها ؛ فسمع منها مثلَ صوت البلَّور ، يتكسَّر بعضُه على بعضٍ .

وتحدَّثتْ له ، وكأنَّها تتحدَّثُ فيه : فسمِعَ بأذنه ودمِه ، ثُمَّ كان غَضُّ عينِه أقوى

---

(١) « زبرجدة » : حجر كريم ذو ألوان كثيرة ، أشهرها : الأخضر والأصفر .
(٢) « جزلة » : هي التامة الخَلْق ، والجيِّدة الرأي .
(٣) « رابية » : كبيرة الحجم . والرابية : ما ارتفع من الأرض .

لرؤية قلبه ، وجَمْعِ خواطره .

ورأى صوتَها يَشْتَهِي ؛ وعانقتْهُ رائحتُها العطريّة النَّفَّاذة ؛ وأحاطتْه بجوٍّ كجوِّ الفِراش ؛ وعادت أنفاسُها كأنَّها وسْوَسَةُ قُبَل ؛ وصارت زَفَرَاتُها كالقِدْر إذا اسْتَجْمعَتْ غَلَيَاناً ؛ وطلعتْ في خياله عُريانةً كما تَطلعُ للسَّكران من كأس الخمر حُورِيَّةٌ عُريانةٌ ، لها جسمٌ يبدو من اللِّين ، والبَضَاضَة ، والنَّعمَة كأنَّه مِنْ زَبَد البحر ؟

قال أبو الحسن : وكنتُ كالنَّائم ، فما شعرتُ إلا بصوتٍ كصَكِّ الحجر بالحجر ، لا كتكسُّر البلَّور بعضه على بعضٍ ، وسمعتُ شيخي يقول :

أفَسَقْت . . . ؟

* * *